Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جاهلي ، والتعبير جاهلي ، والتعليل جاهلي أيضاً ، وهو في الحقيقة ليس تعليلاً ، بل تسويغاً لذوق الأحنف ، ولو أن هذا البيت صار معياراً لما يستجاد من المدح ، لما أفضى ذلك طبعاً الى تطور المدح بتطور الزمن على نحو قد يمدح فيه الشاعر بغير النسب من مكارم الأخلاق .

ونلاحظ الأمر نفسه في « اجتماع » الناس على أرق بيت ـ كما مرّ بنا :

وما ذرفت عيناك إلا لتضربي بسهميك في أعشار قلب مقتل

وها هنا لا ندري أيضاً معيار الرقة ! فربما كان ذكر الدموع سبباً لها ، وربما كان القلب المقتل باعثاً عليها ، وربما كانت السهام في أعشار القلب منفذاً إليها ، على أننا ندري أن هؤلاء الذين اجتمعوا عند عبد الملك لم يحيطوا بكل ما قيل من أبيات الرقة الجاهلية ، بله الإسلامية ، كي يحكموا لبيت امرىء القيس بأنه سيد الرقة ـ ولأمر ما كان ما يقوله امرؤ القيس خاصة مقدماً ـ متجاوزين بذلك ما أفاض فيه الشعراء من الغزل العذري ، وغير العذري مما ينطوي دون جدال على كثير من جوانب الرقة .

ينبغي إذن ألا ننظر الى هذه الروايات ، إلا على أنها نماذج من الذوق النقدي الغنائي في العصر الأموي ، لا تنطوي على معيار فني معين ، وحقاً ان وضع معيار فني أمر عسير ، بل يكاد يكون ممتنعاً ، لأنه لن يكون الا معياراً ذوقياً خاصاً ، بيد أن إطلاق الأحكام النقدية جزافاً ينبغي أن يكون أعسر ، لأنه يجعل مما هو شأن خاص شأناً عاماً ، دون ما يسوغ ذلك .

ولقد تفاقم أمر الذوق الغنائي في النقد ، وبلغ مداه إبان الخصام الشعري الذي خاض غماره الهجاؤون الثلاثة : جرير ، والفرزدق ، والأخطل ، ذلك أن حدة الخصومة ، وما تبعها من عصبية ، جعل التفضيل أمراً جوهرياً ، فهذا أفضل في المدح ، وذاك أفضل في الهجاء ، وآخر أفضل في الخمر أو النسيب ،